في الأدب العربي

أبو العتاهية

بقلم عبد الحليم عباس

لا أعرف . ماهو هذا الشيء الذى يجذبنى الى قراءة هذا الشاعر ، ومعاودة هذه القراءة الفينة بعد الفينة .

فليست جودة شعره هى كل شيء ، فهناك من يفوقه طلاوة لفظ ، وصحة أداء ، وسمواً فى الشاعرية .

لا لأنه يعيد لنا صورة حقبة رائعة للمجد العربى ، والحضارة العربية ، التى نما فى أحضانها وتقلب فى أعطافها ، والتى تغذى فينا هذه العزة القومية ، التى نشعر أنها مثلومة ، كلما رأينا الوطن نهباً مقسماً مهيض الجناح . . . هناك غيره من الشعراء ، يمثلون أروع الحقب ، وأزهى الأزمنة للفتح الاسلامى ثم نحن لا نستطيب أحاديثهم ، ولا نستملح سيرهم بهذا المقدار . . ولعلّ السبب يعود الى هذه العواطف والفكر ، التى يبعثها فيك هذا الشاعر ، والى هذا التركيب النفسانى ، الذى يبعث فيك صدى متضارب النغمات ، ومزيجاً من العواطف فيها السخرية المشوبة بالعطف ، وفيها الضحكة العالية ، تنطلق لتقطعها عواطف الرثاء والرحمة . . وليس هذا بالقليل ، وأية متعة أسرُّ للنفس ، وأخصب للفكر ، من أن تفخر وترثى وتتفكه وتعبث . ثم تستعبر لتعود فتضحك ملء أشداقك . انها الحياة مصغرة فى سيرة شاعر ما أحراها منا بدراسة مستفيضة .

نسب أبى العتاهية وعصره

قوام النقد فى العصر الحديث

النقد الحديث يقول إن العبقرى ثمرة عصره ، غذتها هذه الأصلاب ، وهذه البطون تتلقفها ، وهى تنسل من الأجيال ، وتتمشى ببطء الى زمنها المقدور وميقاتها المحتم ، فالبحث فى خصائص العباقرة ، يجب أن تتناول قبل كل شيء البحث فى أزمانهم ، وتحليل هذه العوامل التى تتضافر على خلقهم . ثم مقياس إبداعهم الفنى ، وما يتركون من آثار ، بمقاييس الجمال والفن المتواضع عليها فى أزمانهم . .

ولا مشاحة فى أن هذه النظرية ارتفعت بالنقد الى حيث أصبح مأمون الجانب من عبث الأهواء ، وتقلب الميول ، وألقت ضياء على هذه الدياجير التى كانت تعتور الباحث ، وتتكاءد المنقب . ؛ بيد أنها من وجهة ثانية جادت على العبقرى ، ولم تحسب لهذا السر يُودَعُ فى نفسه حساباً فى أبحاثها ، فليس الزمن ، وليست قوانين الوراثة ، هى كل شيء فى إيجاد العبقرى وتكوين رسالته . وإنما هو سر غامض مستعص حله كغيره من هذه الأسرار التى تحيط بهذا العالم الأكبر والأصغر ، والتى يحاول العقل جهده إماطة اللثام عنها ، ثم لا يجد غنيمة بعد الكد إلا سلامة القفول . . . وإلا فأى شيء هذا الذى يخلق الأثنين من صلب واحد ، وفى زمن بعينه ، ثم تتسامى نفس احدهما وتفتح أفكاره ، فاذا هو يغذى الانسانية بزاد المعرفة ، ويتسامى بها ، ويزيد فى ذخيرة الخلود . وأما الثانى فيعيش خاملاً مغموراً ويندس فى سواد الناس . . فقمين بنا أن نحسب لهذا حساباً فى أبحاثنا . . ثم نحسب لهذا المزاج والتركيب النفسى فى الشاعر ، وهو أثر من آثار هذه الهبة ألقته القوة المجهولة ، فى نفس الفنان وركبت أعصابه على مثال خاص ، ليتلو رسالته ويهتف بلحنه على نغمة مرقومة ونحو خاص : حساباً علّه لا يقل أهمية عن عوامل الزمن وقوانين الوراثة . . .

وما أحرانا ونحن نبحث بحثاً مقتضباً عن الشاعر — أبو العتاهية — أن نغفل — ولو الى حين — عوامل العصر والوراثة لنتكلم عن مزاجه ، وحسبنا أن نعلم عن العصر والأصل . . أن أبا العتاهية تحدر من أصل وضيع ، ومن الموثوق أنه اشتغل ببيع الفخار ، ورافق المخنثين . أما الزمن فيكفينا أن نعلم أنه من هذه الأزمان التى كانت تنكر كل فضيلة ، والتى يطلق عليها كلمة المتشائمة « pessimistes » والتى كان الشك ، والاغراق فى المجون أظهر مميزاتها .

مزاج أبى العتاهية

وأول مايطالعك من مزاج أبى العتاهية هذا التناقض ، وهذا الاضطراب ، فيما يأخذ ويدع ، وفيما ينهج من سبل

فلقد تجاذبت نفسه طرفى النقيض ، وكان يرى الدنيا ويلابس الوجود على هدى نزعتين بينهما من الاختلاف مابين النقيض ونقيضه . . فهو آونة مندفع بتيار اللذة مستغرق بهذا المجون ، الذى وصل بعصره حدَّ الشناعة ، وطوراً تتقمصه أرواح الزهاد ، فيلبس المسوح ويهجر اللذائذ ، وتتملكه تملكاً عنيفاً فكرة الخوف من الموت . فاذا هذه الدنيا باطلٌ ، وإذا هو موفٍ من الصلاح على الغاية .. حتى ليحار فيه أهل عصره ، وقد تصل بهم الحيرة الى حد أن يحيلوا أمره الى العبث ، ويرموه بالتدجيل ، والحق أن ليس فى هذا عبث ولا تدجيل ، وأن الأمر صادر عن عقيدة خالصة طهور ، وهذا التناقض قريب المرد إذا رحنا نستوضح خافيه على ضياء مزاجه ، حتى لنرى أن قد تقاربت هذه المتناقضات ، فاذا هى تنبع من عين واحدة . .

فأبو العتاهية — لم يكن مستقيم المزاج وانما هو مضطربه ، وقد طغى فيه الجانب العاطفى ، ولم تتح له نشأة صالحة ، ولا بيئة هادئة ، تخفف من حدة هذا الأضطراب ، وتأخذ بزمام هذه العاطفة الى حيث يتملكها العقل ، ويفرض عليها سلطانه ، وقد بلغ من طغيان هذه العاطفة أن أصبح الشاعر عرضة لانفعالات مخيفة مستهجنة فى عرف العقل ، والعاطفة الصحيحة ، كأن يتخذ — مثلاً — لباسه من قوصرتين يدخل رأسه فى احداهما . ويدخل رجليه فى الأخرى ، كل ذلك زهادة فى الدنيا وكرهاً لنعيمها ، ولكن أية سخرية تتملكك إذا رأيته يلقيهما بعد حين ليتخير على المنى ، ويجرى مع الغواية ، وليسيم سرح اللهو ، على أن ينفض يده كرة أخرى من نعيم الدنيا ، ويجلس حجَّاماً لأبناء الفقراء ، يبتغى المثوبة ، ويطلب الباقيات الصالحات ، ثم تكون آخر أمنياته . وقدمه فى حياض الموت أن يسمع غناء مخارق .

كل ذلك جائزٌ فى عرف هذا المزاج المضطرب وليس بمستغرب منه ، وانما المستغرب أن يمشى وفاق نظام معين ، وخطة مقررة . . وإذا عرفنا هذا من أبى العتاهية ، فقد عرفناه ظاهراً وباطناً ، وأصبح سيرنا معه مأمون الغرابة . وأصبح لهذه الخطرات المستغربة علتها الأصيلة المعروفة المنبع والمورد . وأصبحنا نرقب منه فى كل أمر شذوذاً وانحرافاً الى ضده . فاذا رأيناه مثلاً ينعى على الناس حرصهم ويقول :

تعالى الله ياسلم بن عمرو أذلَّ الحرص أعناق الرجال

ارتقبنا منه أن يكون نادرة فى الحرص .

وإذا نهض ليرى الناس صغارة دنياهم وحقارة بدرهم وأموالهم .

إن مال المرء ليس له منه إلا حظه الحسن
كل حى عند ميتته حظه من ماله الكفن

عرفنا أنه أعجوبة الزمن ، ونادرة العصر ، فى البخل والتقتير . . عاتبه صديق له على هذا البخل المنقطع النظير وقال له : إن الناس يزعمون أنك من شدة بخلك ، وفرط تكالبك على حطام الدنيا لا تأكل اللحم — أو الأصح تشتريه — إلا فى العيدين ، فتأوه أبو العتاهية وقال : والله لقد ظلمونى . وأنى قد اشتريت لحماً وتوابل فى يوم عاشوراء .

على أننا نرى هذا البخل فى حاجة الى كلمة خاصة ، فلقد كان من المنتظر أن يهب أبو العتاهية ولو مرة ليتلف هذا المال ويبذره جرياً مع هذا المزاج ، ولكنه لم يفعل هذا ولا جال بنفسه : وعلة هذا تعود الى أمرين ، أولهما أنه نشأ فى صميم الفقر ، وذاق غصته ، وعرف أن المادة هى كل شىء فى قيم الرجال

ما الناس إلا للكثير الما ل أو مادام فى سلطانه

وكان سيء الظن بالناس ، يخشى عادية الفقر ، ويخشى أن طاح به غدر الزمان ألا يجد أخاً معيناً

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه
فاذا احتجت إليه ساعة مجك فوه

والسبب الثانى ، أنه أرضى مزاجه الغريب ، بمناقضة الناس وشدة حرصه وتكالبه ، فكلما عنَّ له أن يتلف ماله ذكر سوء المنقلب . فيندفع غلواً فى التقتير .

* * *

وأبو العتاهية سوداوى المزاج من نوع خاص يميل إلى ما يميلون اليه ، ولكن أعصابه ما كانت لتقوى على السير على منهاجهم . فهو يتبرم بالناس وينشد الوحدة

برمت بالناس وأخلاقهم وصرت أستأنس بالوحده

ولكنه لا يقوى على وحشة الوحدة . فيعود ليندفع بشدة فى صخب الاجتماع ، فهو ضعيف الأعصاب من جهةٍ ، ومضطربها من جهةٍ ثانية ، وأصدق مظهر يدل على ضعف أعصابه

ما كان من أمره فى شأن الدين . فقد زعم أهل عصره أنه كان زنديقاً ، وقد انتابه الشك فى أمر العقائد ، وجاراهم فى هذه النظرة رجال النقد الحديث ، ولكنهم لم يبينوا لنا مدى هذه الحيرة فى أمر الدين ، ومقدار هذا الشك . فهو قد شك وحار ، ولكنه شك الطفل وحيرته ، تروعه الأشباح وتتملك وعيه الهواجس ، فلا يجد بداً من الاستسلام فيروح يتعلق بالدين تعلق الخائف . ويستسلم الى خرافاته استسلام العجائز

إلهى لا تعذبنى فانى مقرٌّ بالذى قد كان منى
فمالى حيلة إلا رجائى لعفوك إن عفوت وحسن ظنى

وانظر اليه لتتحقق صدق هذه النظرة وهو يناجى الموت ، فما كان ليقف عنده وقفة المعرى يسأله ويستوحيه عن أسراره وغوامضه ، وانما هى وقفة الخائف الرعديد ، تلجمه روعة الموقف وتأخذ عليه الدهشة مسارب الفكر ، فاذا كلٌّ مايهجس بخاطره ويدور بخلده ، خشوع عميق ، ووصف مقتضب للموت يلوذ بعده ، إلى إظهار التوبة والضراعة

كلنا فى غفلة والموت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح
رحن فى الوشى وأصبحن عليهن المسوح
نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح

ويزيد فى رخاوة هذه الأعصاب واضطرابها أن أبا العتاهية لم ينل حظاً وافياً من الثقافة ، وكان أيضاً ضعيف الخبرة بالدنيا لم يمر عليه من التجارب ، ما يصقل هذه العاطفة المستوفزة .

ولمعترضٍ أن يقول : كيف يكون ضعيف الخبرة ، قليل التجربة من طفحت بأمثاله كتب الأدب وأسفاره . فهو قد نظم أرجوزة حسب ، أودعها مئات بل آلاف الأمثال والحكم الرائعة ، وصحيح هذا ، بيد ان هذه الأمثال ونحن نقلبها ونعيد تلاوتها ، لا نجدها تدل على علم مستفيض وخبرة واسعة ، فكلها فى معنى واحد ، وان تجاوزته فالى معان متشابهة مطروقة ، فهو يرى أن الدنيا ما برح مقدورا عليها الفناء ، فخير زاد للمرء التقى ، أو السمعة الحسنة ، ومن يقل غير هذا ؟

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فامنى أو فذر ان كنت أخطأت فما أخطا القدر
كأن كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكى لمعة الآل

وهكذا دواليك من العبر الرخيصة القريبة المتناول ، والتى لاتحتاج إلى سعة فى العلم ولاسمو فى التفكير كالتى تجرى على لسان المتنبى مثلاً : وانما نحتاج إلى هذا اللسان الذرب ، والشاعرية السمحة . ومن أولى بها من هذا الذى كان يتناول الشعر من كمه كما يقول الأصمعى ، ولعلَّ هذا هو السبب الذى يعود إليه كثرة السقط فى شعره .

شرقى الأردن

عبد الحليم عباس

فرصة للاستثمار

يقدمها بنك مصر لمواطنيه

سندات

شركة مصر للغزل والنسج

سندات ذات فائدة مرتفعة وثابتة لمدة طويلة

مضمونة بجميع موجودات الشركة

تدفع قيمتها وكوبوناتها قبل توزيع أرباح على المساهمين

ينتهى الاكتتاب فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤

« تقدم طلبات الاكتتاب لبنك مصر وفروعه »

ولأصحاب الودائع فى صندوق التوفير الحق فى الاكتتاب مع رفع كل قيد